محاضرة الاسبوع الثالث :

الغزو البرتغالي للخليج العربي والبحر الاحمر :

قد سبق البرتغاليون غيرهم من الأوربيين في المجال الاستعماري ، فبعد اكتشافهم لطريق رجاء الصالح سنة ١٤٩٨ تمكنوا من الوصول إلى المياه العربية الجنوبية المتمثلة بالخليج العربي والبحرالاحمر والبحر العربي ، وقد احتلوا أغلب موانئ الخليج العربي المهمة وجزيرة وبنو قلاعا دفاعية حصينة في هرمز ومسقط وعمان والقطيف وصحار والبحرين ، وقد جاءوا إلى المنطقة بأساطيل قوية تضم سفنا كبيرة ذات أسلحة نارية فتاكة لذلك لم يكن لسكان المنطقة قبل بها فعجزوا عن مقاومتها في بادئ الامر ، كما تميزت سياستهم بالعنف والقسوة والتعصب الديني والعنصري .

كان لظهور البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر أثر بعيد في تاريخ الخليج العربي وأقطاره ، فقد حولوا طرق التجارة عن مجراها التقليدي المار عبر البحر المتوسط والبحر الاحمر فالبحر العربي والعراق فحرموا منطقة الخليج من مصدر أساس من مصادر ثروتها ، وكانوا بالإضافة إلى ذلك مدفوعين في حركة الاستكشافات والتوسع هذه بروح صليبية وكانت غاياتهم واضحة ومحددة أولها الالتفاف حول العرب وشن الحرب عليهم وتوجيه ضربة قاضية للتجار العرب الذين يعملون منذ العصور الوسطى في نقل التجارة الشرقية من الهند والشرق الأقصى إلى موانئ البحر الاحمر والخليج العربي حيث تتولى القوافل العربية نقلها من السويس عبر الأراضي المصرية إلى القاهرة فالاسكندرية أو من البصرة عبر العراق وبادية الشام إلى موانئ البحر المتوسط لتنتظرها سفن المدن الإيطالية ومنها جنوه والبندقية وتحملها إلى أوربا .

كان الوطن العربي عندما بدأت هجمات البرتغاليين على البحر الاحمر في أوائل القرن السادس عشر يمر في دور انحلال سياسي وعسكري في حين كانت الدولة العثمانية باعتبارها دولة إسلامية قد وصلت الذروة في قوتها السياسية والعسكرية ، لذلك اتجهت أنظار بعض العرب إلى الدولة العثمانية كي تعينهم ضد

الخطر البرتغالي وعلى سبيل المثال اقترح شريف مكة سنة ١٥١٦ إرسال وفد إلى السلطان سليم طلبا للمساعدة العسكرية غير ان السلطان المملوكي قانصوه الغوري ١٥٠٠ – ١٥١٧ منع سفر ذلك الوفد .

وسرعان ما أدرك المماليك خطر البرتغاليين الذي بات يهدد طرقهم التجارية المؤدية إلى الهند ، كما يهدد المراكز الإسلامية في الجزيرة العربية خاصة بعد ان اتضحت أهداف البرتغاليين بالتقدم للاستيلاء على مصر والأماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين ، يتجلى ذلك في رغبة القائد البرتغالي الفونسو الذي كان يحلم بقيادة جيوش ضخمة تحقق أهداف البرتغاليين الاستعمارية ورغم أن هذه الخطط كانت فوق طاقة البرتغال ولكن سيتجلى مغزاها في أنها تظهر لنا ان أعظم قادة البرتغال لم ينشر الثل الصليبية العليا هذا ومن جهة أخرى كان البرتغاليون مدركين وقلقين كذلك من أن رد الفعل لغزوهم سوف لا يقتصر على المقاومة العربية بل يشمل العثمانيين الذين يحتمل أن يجيئوا لمساعدة أبناء دينهم ، في الخلي العربي ، وعلى الرغم من اختلاف الأهداف السياسية لكل من العثمانيين والبرتغاليين في الأقطار العربية ، غير ا المجابهة العسكرية بين الطرفين كانت محتملة الوقوع أثناء الربع الأول من القرن السادس عشر ، خاصة بعد فشل المماليك في محاولتهم حماية الجنوبية وإبعاد الخطر البرتغالي أثناء السنوات الممتدة ين سنتي ١٥٠٦ – ١٥٠٩ من جهة ، واندحار الصفويين الفرس أمام العثمانيين في معركة جالديران سنة ١٥١٤ من جهة أخرى ، فعندما عرف القائد البرتغالي البوكيرك بهزيمة الصفويين كتب إلى الملك البرتغالي عمانوئيل الأول السماح له بتجهيز الشاه إسماعيل الصفوي بالمدفعية اللازمة كي يتمكن الصفويين من إضعاف القوة العثمانية ويعرقلوا تقدم العثمانيين صوب المياه العربية والهندية .

لقد دفعت الضرورة السلطان المملوكي قانصوه الغوري بعد أن حطم البرتغاليون أسطوله في جوال سنة ١٥٠٩ قرب ميناء ديوا إلى طلب المساعدة البحرية من السلطان العثماني ، فأسرع العثمانيون في إرسال مواد بناء السفن مع الفنيين المختصين إلى ميناء السويس في كانون الثاني ١٥١١م في هذه الأثناء لم

تتوقف فعاليات البرتغاليين في المياه العربية فرغم فشل القائد البوكيرك في احتلال عدن سنة ١٥١٣ بسبب المقاومة العربية الباسلة غير أنه استطاع الدخول إلى البحر الاحمر واحتلال جزيرة قمران ، فأصبح ميناء جدة معرضا لخطر مدفعية البرتغاليين وعندما كمل بناء الاسطول المملوكي عين السلطان الغوري سليمان ريس ، وهو قائد بحري عثماني رئيسا له فأبحر من السويس سنة ١٥١٥ مستهدفا الدفاع عن البحر الأحمر وطرد البرتغاليين منه وإبعاد خطرهم عن مكة المكرمة ، واستطاع في سنة ١٥١٧ وسنة ١٥٢٥ إحباط الهجمات البرتغالية على جدة ونجح العثمانيون في اثناء هذه الفترة في التمركز في زبيد لكنهم فشلوا في تثبيت سيطرتهم على ميناء عدن ولم يتحقق لهم ذلك إلا بعد احتلال العراق .

الغزو البرتغالي للمغرب الأقصى :

تطلع البرتغاليون إلى أقطار المغرب الاقصى وعملوا على تطويقها واحتلال موانيها المطلة على البحر المتوسط ، وقد أبدى ملك البرتغال خوان الأول ١٣٨٥ – ١٤٣٣ اهتماما كبيرا بالبحرية والأساطيل لاحتلال القواعد والمراكز التي تسيطر على الطرق التجارية وانتهز فرصة الاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي الذي كانت تعيشه أقطار المغرب العربي في أعقاب سقوط دولة الموحدين سنة ١٢٧٥ ظهور قوى منافسة فيما بينها على السلطة كالمرينيين ١٢٦٩ – ١٤٢٠ والوطاسيين ١٤٢٠ – ١٥١٠ وغيرهما ، فهاجم سبته في آب سنة ١٤١٥ واستولى عليها في محاولة للسيطرة على الساحل الأفريقي والشمالي ، وقد بدأ البرتغاليون بنقل الذهب والمنتجات الزراعية من أفريقيا بحرا إلى لشبونة ونافسوا بذلك طرق القوافل المارة بمصر ، وقد سعى المرينيون الذين ورثوا الموحدين في جنوب مراكش منذ منتصف القرن الثالث عشر إلى استعادة سبته ، حين هاجمها السلطان أبو سعيد المريني إلا أن البرتغاليين أحبطوا هذه المحاولة بل وجربوا احتلال طنجة عندما أرسل الملك ادوارد الذي خلف أباه خوان الأول سنة ١٤٣٧ حملة بقيادة أخويه دون فرناندو ودون هري ، اتجهت نحو طنجة لكن سكانها دافعوا عن مدينتهم دفاعا مستميتا ، كما عن السلطان

عبد الحق بن أبي سعيد المريني أرسل إلى المدينة المحاصرة إمدادات كبيرة فشلت الحصار واضطرت البرتغاليين إلى الانسحاب نحو سبته .

ثم لحقت الجيوش المغربية بالقوات البرتغالية وطوقتها واسرت الأمير دون فرناندو وعدد كبير من أعوانه ، وقد اشترك المغاربة مقابل إطلاق سراح الأمير انسحاب البرتغاليين من سبته ، ولكن ملك البرتغال رفض العرض وترك أخاه يموت في الأسر .

تولى عرش البرتغال الملك الفونسو الخامس سنة ١٤٥٣ فاتبع سياسة أسلافه الذين قصدوا السيطرة على أقطار المغرب العربي فاتجهت أنظاره نحو ميناء القصر الصغير أو قصر مصمودة الذي يقع بين سبته وطنجة ، وكان هدفه الرئيس احتلال طنجة / وفي تشرين الأول سنة ١٤٥٨ قاد حملة مكونة من ٢٨٠ سفينة و ٢٥ ألف جندي واستولى على الميناء المذكور ، لكنه فشل في احتلال طنجة رغم محاولاته المتكررة بين سنتي ١٤٦٣ – ١٤٦٤م .

عانى المغرب الأقصى في أعقاب مقتل السلطان عبد الحق المريني في أيار سنة ١٤٦٥ من ظاهرتي عدم الاستقرار السياسي والانقسام الداخلي ، إذ نشب صراع على الحكم بين الشريف الإدريسي محمد بن علي وبين قائد مدينة أصيلا محمد بن الشيخ الوطاسي ، وامتد الصراع حتى ١٤٧٢م ، بدخول الشيخ الوطاسي مدينة فاس مؤسسا الدولة الوطاسية ، ولم يستطع الوطاسيون إعادة الوحدة السياسية للمغرب الأقصى فقد ظل المرينيون يحكمون مدينة مراكش التي أصبحت تسمى عاصمة الجنوب ، في حين أصبحت فاس عاصمة للقسم الشمالي في المغرب .

استطاع البرتغاليون وضع حمايتهم على أزمور سنة ١٤٦٨ في سنة ١٤٧١ احتلوا أصيلا وطنجة والعرائش ولم تبق حرة الا تطوان التي ظهرت فيها حركة مقاومة ضد الغزو البرتغالي بقيادة المندري قائد حاميتها ، كما ظهرت في مدينة شفشاون سنة ١٤٧١ وتقع على ارتفاع ألف متر في جبال الريف بالقرب من تطوان ، حركة مقاومة قادها الشريف العلمي علي بن راشد

امتاز الغزو البرتغالي بخصائص عديدة : أبرزها سيطرة الطابع العسكري والاكتفاء في بداية الأمر بالمدن الساحلية ، وكانت محاولة التوغل والتحكم في المناطق الداخلية اعتمادا على حصن جزيرة المليحة عند التقاء نهو اللكوس ونهر وادي المخازن أول محاولة في هذا الاتجاه .

لقد استمر البرتغاليون في توسعاتهم فاتجهوا نحو المغرب الأوسط وأقاموا مؤسسة تجارية في وهران سنة ١٤٨٣ وامتد نفوذهم إلى مدينة مراكش نفسها وسرعان ما ظهرت الدولة السعدية في الجنوب الغربي من وادي السوس لتتحمل مهمة الدفاع عن البلاد وصد الغزو البرتغالي ، وكانت بعض جهات الوادي المذكور وخاصة مدينة أغادير قد وقعت في أيدي البرتغاليين ، ونجح سلاطين هذه الأسرة في تحرير كثير من موانئ مراكش ففي سنة ١٥٤١ هاجم السلطان محمد المهدي قلعة سانتا كروز في إقليم العيون الصحراوي الحالي واستولى عليها وكان من نتيجة الاندحار البرتغالي هذا إخلاء جميع النقاط المحتلة في أقل من عشر سنين باستثناء سبته وطنجة ومازاغان خرج النفوذ السعدي من هذا الامر عظيما فنودي بمحمد المهدي سلطان على مراكش كلها سنة ١٥٤٥ .

الغزو الاسباني للجزائر وطرابلس وتونس :

اتخذ الغزو الاسباني لأقطار المغرب العربي طابعا دينيا صليبيا ، إذ لم يقنع الاسبان بالقضاء على الوجود العربي في الاندلس وإنما هدفوا إلى مطاردة العرب في شمال إفريقيا والوصول إلى مصادر ثروتهم الأساسية في ذلك الوقت والمتمثلة باحتكار التجارة ، وكان لظهور دولة اسبانيا الحديثة الموحدة أثر زواج فرديناند الخامس الكاثوليكي بالملكة إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة الكاثوليكية أثر كبير في توجيه أنظارهم نحو الشمال الأفريقي ، وقد بارك البابا اسكندر بورجيا الرابع نشاطات الأسبان في هذا المجال ونثر قرارا يعطي الولاية لملكي اسبانيا على الاراضي التي يبسطان السيطرة الاسبانية عليها .

لقد احتل الاسبان مرفأ عنابة سنة ١٤٦٣ وبعد حصا دام قرابة شهرين ومقاومة عنيفة من سكانها استطاع الأسبان احتلال مدينة المرسي الكبير غربي الجزائر في

أيلول سنة ١٥٠٥ وفي ١٧ اذار ١٥٠٩ احتل الاسبان مدينة وهران التي كانت تبعد عن المرسي الكبير ثمانية كيلومترات ، كما احتلوا في ٥ كانون الثاني ١٥١٠ مدينة بجاية وبعد استيلائهم على جزيرة اسطفة أصبحت مدينة الجزائر ضمن مدى مدفعيتهم فاحتلوها سنة ١٥١١ ولقد حاول الأسبان التوغل داخل الجزائر لكنهم فشلوا بعد مقاومة عنيفة التي أبداها السكان .

لم تقف مطامع الاسبان عن احتلالهم الجزائر ، بل امتدت لتشمل السواحل الشرقية فاصطدم القائد الاسباني الكونت بدرو نفارو بمقاومة عرب السواحل التونسية الذين استفادوا من هزيمة إخوانهم عرب السواحل الجزائرية فهرعوا لتقوية الحصون وإعداد العدة للمقاومة ولم يتركوا ثغرة يستطيع العدو النفاد فيها ، الأمر الذي اضطر بدرو نفارو إلى اتباع تسراتيجية جديدة تقوم على احتلال طرابلس ومن ثم التقدم نحو الشمال ، ورغم مقاومة طرابلس ، فإن الاسبان تمكنوا من اقتحام المدينة يوم ٢٥تموز سنة ١٥١٠ بعد ان بلغت خسائرهم قرابة ٣٠٠ قتيل .

اتجه القائد الاسباني بدرو نفارو نحو الساحل الغربي لاحتلال جزيرة جربة ، ولكنه انسحب من أمامها في أواخر تموز ١٥١٠ أمام مقاومة أهاليها ، ولم يكن السكان في الجزائر قرفنة أقل من إخوانهم أهالي جزيرة جربة استعدادا وتصميما على المقاومة ، لذلك عاد بدرو نفارو إلى مدينة بجاية في شباط سنة ١٥١١م .

وقد قاد الملك الاسباني شارلكان حملة بحرية يوم ٣١ أيار سنة ١٥٣٥ مؤلفة من ٣٠ ألف من المقاتلين الذين أصبحوا يوم ١٦ حزيران من السنة نفسها أمام أطلال مدينة قرطاجة وسواحل مدينة تونس ن وفي ٢١ حزيران احتلال الاسبان مدينة تونس وأباحوا لجنوهم نهبها انتقاما من أهلها الذين قاوموا الاحتلال .

فرض الاسبان على السلطان الحفصي الحسن بن محمد معاهدة مهينة كان من أبرز بنودها :

١- اعتراف الدولة الحفصية بتبعيتها للدولة الأسبانية .

٢- ملكية الاسبان ملكية مطلقة لمرسى حلق الوادي وقرطاجة ومدينتي عنابة والمهدية .

٣- التزام " السلطان " بأن لا يدخل بلاده أحد من مهاجري الأندلس .

وهكذا كان الاحتلال الأسباني للجزائر وطرابلس وتونس جزءا من خطة صليبية أوربية استعمارية استهدفت تطويق العالم الإسلامي والوطن العربي ، وذلك لمحاولة إخضاع هذه المنطقة لنفوذهم والسعي لطمس معالم الحضارة العربية وقد استطاع الاسبان والبرتغال من توجيه ضربة شديدة إلى اقتصاد الوطن العربي بعد أن وضعوا أيديهم على تجارته فأصبحوا قادرين على إيصال البضائع إلى أوربا بأسعار تقل عن أسعار البضائع التي كانت تمر بالأقطار العربية وتدفع رسوما كثيرة .

لم يكن العثمانيون وهو القوة الفتية في العالم الاسلامي آنذاك بغافلين عن تلك التطورات الخطيرة التي كانت تحرك العالم في مطلع القرن السادس عشر الأمر الذي أدى إلى اندفاعهم في البحار ذات القيمة التجارية ولاسيما منها البحر المتوسط والمحيط الهندي ، وقد وجد السلطان سليم الأول أن على الدولة العثمانية إذا ما أرادت لممتلكاتها حفاظا أن ترمي ثقلها في ذلك الصراع قبل فوات الأوان ، فاحتلال الوطن العربي يحقق لها عدة أهداف أهمها بسط السيطرة العثمانية على الحوض الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط ، وإبعاد نفوذ البنادقة والجنوبيين عنه ، والحد من عبث القرصنة الأوربية وتأمين المواصلات البحرية للدولة العثمانية وتجارتها والوصول إلى الأماكن المقدسة وحمايتها من إمكانات عبث البرتغاليين بعد ان ثبت إخفاق المماليك في هذه المهمة ، والسعي لإعادة الدولة الإسلامية إلى وحدتها السابقة وهيبتها الماضية وإبعاد مطامع الأوربيين ومنعهم من تطويق الدولة العثمانية وسد منافذ التجارة عليها .

الآن وبعد أن وضحنا العوامل والظروف التي جعلت الوطن العربي في القرن السادس عشر ميدانا جديدا لتوسيع العثمانيين بعد ان بلغ توسعهم في أوربا مداه تقريبا ، لا بد ان نتابع مراحل سيطرتهم على الوطن العربي :